محمد بن ربيع الغامدي

رجلٌ تُدرِكُه الأبصار

قصص قصيرة

الطبعة الثانية 2025

محمد بن ربيع الغامدي

رجل تدركه الأبصار

قصص قصيرة

الطبعة الثانية

٢٠٢٥

ⓒ محمد بن ربيع الغامدي ، ١٤٤٦هـ

الغامدي ، محمد بن ربيع
رجل تدركه الأبصار. / محمد بن ربيع الغامدي - ط٢. .- الباحة ، ١٤٤٦هـ
٧٢ ص ؛ ..سم

رقم الإيداع: ١٤٤٦/٨٥٠٨
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٥-٢٨٠٨-٠

طبعة منقّحة

الطبعة الأولى ٢٠٢٠ الباحة

الطبعة الثانية ٢٠٢٥ الباحة

الإهداء

إلى مساريب القرى وأزقة المدن ،
حيث قصاصات الزمن و خرائط الأمكنة.
وحيث تناثرت سنيّ عمري،
وأطياف أحلامي،
وأوهام خيالاتي.

الجبابرة

أمام نافذة عريضة تشف عن سماء واسعة، وقفت ووقف حفيدي بجواري. كنت أحدق ويداي على الحافة السفلى للنافذة، وألوان المعركة تتساقط على وجهينا. هو الرعب الذي ما تخيلته يوما، ولم يتخيله أبي، ولا أجدادي من قبل. رعب يحبس الأنفاس وتجف له الحلوق وتتمزق منه الأوتار، حتى يغدو الفؤاد مثل عرجون قديم.

لست أدري على وجه الدقة؛ كيف انشقت السماء في تلك اللحظة، وكيف برز ذلك الجبار فجأة وشرع يقاتل الأعداء. والجبار وأعداؤه كانوا في غاية الغرابة. فلا الجبار كان بشرا، ولا أعداءه كانوا كذلك. وأيضا ما كان ذلك الجبار وحشا، وما كان أعداؤه وحوشا، وما كان ذلك الجبار كائنا خرافيا، وما كان أعداؤه كائنات خرافية. كانت أصابعهم جميعا تعمل كالبنادق. تمطر المكان بوابل من الرصاص، وكانت أفواههم جميعا ترسل شواظات من لهب ونحاس. وكان للتدمير أصوات يرتجّ لها الفضاء من حولي وكان لهم تأوها وزفيرا.

اقترب مسخ أرجواني اللون من كوكب سيار ثم تناوله كما يتناول رويعي الغنم حجرا ثم قذف به الجبار. لكني ويشهد الله، رأيت الجبار ينحني برشاقة عجيبة ليمرّ الكوكب، وليس بينه وبين رأس الجبار إلا مسافة قطمير لا أكثر. ثم ينجح الجبار في الامساك بالمسخ الأرجواني وكما يفعل رامي القرص الإغريقي، يطوح به بعيدا صوب عين الشمس، لتشويه الشمس شويا قبل أن يتبخر في مجالها الأبعد.

مات المسخ الأرجواني لتخرج عصابته من شتى زوايا الكون، ولتضع الجبار أمام اختبار حقيقي. فإما أن ينتصر عليهم جماعات أو فرادى، وإلا فليتذوق طعم الموت، وليشرب من الكأس ذاته الذي سقى منه المسخ الأرجواني.

عندما بدأت المواجهة، وقبل أن تبدأ المعركة، كانت عشرات الكائنات الأرجوانية تتوزع أطراف الســـماء. رأيت الكواكب والنجوم تترقب المعركة. كان الجبار محاصرا داخل دائرة أرجوانية تضيق شيئا فشيئا، والجبار يترقب ويراقب والخيارات أمامه كثيرة. إما أن ينفذ من خلل قد يعتري محيط الدائرة الأرجوانية، وإما أن يدور حول نفســه بســرعة تفوق ســرعة الضــوء ليخلق زوبعة تشـــتت الدائرة الأرجوانية، وإما أن يطير عاليا لينقل المعركة إلى مسرح آخر يرتضيه.

وكما خمّنت: تحلزن الجبار وتسـارع. تسـارع حتى افتعل اعصـارا من ظلمة ونور. ابتلع الإعصار كل أرجوان كان في السماء وطار به بعيدا.

انتهـت المعركـة ولم نغلق أفواهنـا بعـد. أطفـأ حفيـدي تلـك النـافـذة المسحورة، وأشعل مصباح الغرفة.

رجل تدركه الأبصار

ما كنت بالمتوحش يوما. ولا المفترس ومع ذلك فإن لي من المخالب عشرة، عشرة مخالب كأنها مخالب صقر بل أشد فتكا. أشد فتكا عند من يراها من سائر الناس بينما هي في حقيقتها واهنة جدا لا تقوى حتى على فتّ رغيف.

كم ليلة بتُّ فيها على الطوى لأنها أخفقت. وكم هو شاق عندي أكل الخبز رغم المخالب العشرة. مع ذلك فالناس مني في فزع، كلهم إذا رأوا يدي أسلموا أنفسهم للرعب. يتحدث الواحد منهم إذا التقينا حديث الآدمي للآدمي، فإذا وقعت عيناه على المخالب العشرة تلعثم وصك وجهه ثم تولى مذعورا. كم يتعبني ذلك وكم يجعلني منبوذا بين الناس.

مضى أسبوع وأنا في وظيفتي. كانت أنظارهم تمر على وجهي سريعا، لكنها تتوقف طويلا عند يدي. تنغرس مثل السكين في يدي.

توقف أحدهم ذات يوم وسأل: هل أنت حفيد نباش القبور؟ رفعت رأسي وتأملت وجهه وقلت نعم. ولم السؤال؟ قال: سمعتهم يقولون جرائم أبيك قد أنبتت لك مخالب وحش بدلا من الأصابع. أدرت له ظهري وتركته يحدق في سُحُب الاشمئزاز خلفي.

استوقفني آخر وسأل: جدة من جداتك كانت تستعير المواعين من الناس ولا تردها؟ قلت نعم. وأنا أيضا أفعل ذلك فما شأنك؟. قال سمعتهم يقولون فعل جدتك أنبت لك مخالب وحش.

يا لهذه الأصابع التي جاءت عقابا تشكله خيالات الناس كيفما شاءوا. وهم على غير بيّنة، وليسوا عن أصابعي بمسؤولين.

تركت هذه الدائرة الظالم أهلها. بحثت عن غيرها ثم نقلت إليها وظيفتي. انتقلت لدائرة أخرى ولكن لم يتغيّر شيء فقد شغلتهم يدي عن كل شغل.

نصحني أحدهم بقفاز يستر بشاعة كفيّ. هكذا يقول تستر بشاعة كفك! فهممت أن أصفعه. نظرت إليه مليا، أمعنت النظر في كتفيه العريضتين المتباعدتين ثم دفعته عن طريقي ومضيت.

أرسل المدير في طلبي. دخلت عليه وكنت على يقين أن مخلبي هو السبب. دخلت عليه فأجلسني، حاول أن يبدو لطيفا لبقا مستنيرا، أوضح تعاطفه معي، شكرته، ثمّنت له مشاعره النبيلة ولما كدت أن أنهض من مكاني قال لي انتظر، فجلست على مضض. حدثني طويلا عن سمعة ادارته وعن عراقتها. قلت له أُدْرِكُ ما تقول فهل من نصيحة؟ قال نعم. وأخرج قفازا من مكتبه!

أخرج القفاز وبكل برود قذف به نحوي. تناولته بالبرود ذاته ثم قذفت به نحوه وأفهمته أني لست بحاجة إليه، ولا إلى نصائحه الفجّة. انتصبت واقفا ومخالب كفّي على حافة مكتبه وقد عزمت على خنقه حتى الموت. قلت له أني لست خجلان من يدي ودفعت بها نحو عنقه، وعندما هممت بخنقه أخذتني رعشة.

ارتعشت من رأسي حتى أخمص قدمي. ولما هدأت قليلا قلت له: هذه مخالب من قطن فلم الخوف؟. تراجع بمقعده قليلا ثم قال إنها بشعة جدا. تطاير الزبد من فمي وأنا أقول له فلتكن بشعة. أنا لست بشعا، روحي ليست بشعة، فلتكن يدي متوحشة، أنا لست متوحشا، روحي تأبى التوحش. أنا رجل منكم بل أكثر تهذيبا وأكثر لطفا من ألطفكم. وحدي من يدرك حقيقة هذه المخالب، وحدي من يعرف كيف جاءت ومتى جاءت.

نهض المدير من على عرشه الدوّار. استدار حول المكتب الممتد مثل سرير عروس، أقبل نحوي مبتسما حتى وقف بجانبي، طوى هامتي بساعده

الأيمن، فاجأني بقبلة على رأسي، أجلسني وجلس بجانبي ثم قال لي: آسف. قلت له: وأنا أيضا آسف ثم نهضت.

وفي تصرف كنت أستهجنه يوما، انقضضت مثل صقر جارح وقبّلت رأسه. ضحك وضحكت ثم قال لي وقد هدأت العواصف: أنت وحدك من يعرف كيف جاءت ومتى جاءت؟ قلت: نعم لكني لست مجبرا على الكلام.

انفرجت أساريره عن اقتراحين: إما أن أخبره الان، أو أكشف الأمر للجميع في حفلة ودّيه. قلت له ساخرا: بل ما رأيك في مؤتمر صحفي أعقده هنا؟ صفعته بما قلت وخرجت.

يريدون مني أن أعطيهم التفاصيل ليقبلوا بي؟ ليذهبوا إلى الجحيم هم ووظائفهم. ما أحلاني وأنا أعقد مؤتمرا صحفيا أشرح فيه تاريخ أصابع يدي. عليهم هم أن يقبلوا بي كما أنا وليس كما يريدون، لن استجدي رفقة أحد من العالمين.

حتى زوجتي التي كانت الأولى والأخيرة في حياتي، فرّت مني فرارها من الأسد. قلت لها هذا ليس جذاما يا أمة الله وليس علة تنتقل بالعدوى، فلما صكت وجهها في وجهي قلت لها انظري إلى وجهي، إلى قلبي، إلى كلماتي، إلى حبي. ومع ذلك أبت، أبت الا أن تنظر إلى مخالب يدي فطلقتها.

فارقتها ثم فارقت مدينتي التي نيطت فيها عليّ تمائمي. فارقت مدينتي الأثيرة بعد أن نصحتني أمي. قالت ارحل، ارحل يا ولدي إلى ديار لا تكون عنا بعيدة ولا يعرفك فيها أحد. لا تبتعد، لتبقى في متناول قلوبنا، وكن غريبا لتنشغل عيونهم بقسمات وجهك عن مخالب يدك. سمعت كلامها واستوعبته فقبلت به، قبلت به ورحلت إلى المدينة القريبة التي لا يعرفني فيها أحد.

خيّل لي حينها أن هذه المدينة هي فردوسي المفقود وجنتي الموعودة وأن أهلها ملائكة كرام. قلت لنفسي في أول الأمر: حقا ما أسوأ الأقارب ثم

أقسمت في لحظة زهو أن الأقارب عقارب بالفعل. احْتَضَنْتُ المدينة الجديدة أو هي احتضنتني لا فرق.

فررت من مدينة لا تريد أن تراني بمعزل عن أمي وأبي وجدتي وجدي وعمتي وعمي وخالتي وخالي، فررت من مدينة تحتفظ بوقائعي ووقائع أسلافي وسائر سجلاتنا ثم تعيد نشرها أمام كل عين في أي مناسبة وفي كل مناسبة. يحتفظون بعينّات من روائحنا فيمررونها أمام كل أنف.

أنا الآن في مدينة لا تعرفني عدا عن أن تحتفظ بتاريخي وتاريخ أسلافي وعيّنات من روائحي. مدينة أرضها واسعة وسماؤها عالية، مدينة لا تسأل حيّا عن حيّه ولا تروغ نظراتها عن مواطئ أقدامها، مدينة تصبح لتمسي وتمسي لتصبح، لا شيء قبل ولا شيء بعد.

بت أتوق إلى أحد منهم يحدّق في كفيّ فلم أجد. أتمنى أن يلاحظ أحدهم مخلبيّ، أفردهما على سطح مكتبي أمام كل عميل، أبالغ في إيماءاتي دون جدوى. لا أحد ينظر في يديّ ولا أحد يسأل عنهما. اشتدّ بي الضيق، أخذ مني الضجر كل مأخذ، كرهت هذا البرود، بدأت أَتَحرّشُ بالعملاء، دفعت يمناي إلى حلق أحدهم فتقهقر فلا حقته وأنا أقهقه.

مرّ بي عميل له غبب فأوقفته. مررت مخلبي عند حلقه حيث يتدلى الغبب، اقشعر بدنه لكنه لم يتكلم. بت أتلذذ بذلك، أشعر بسعادة وأنا أرى الناس تتكسر تحت مخلبي. أذهب إلى زحام الأسواق، أمرر يدي البشعة على وجوه الناس، أمررها وقاماتهم تتكسر تحتها تكسّر حصيد قد أَحْوَل، تتكسر وأمرّر وأقهقه.

تركت وظيفتي في هذه المدينة الباردة!. تصوروا، تركتها وأنا بأمس الحاجة إلى المال. كتبت استقالتي بخط مخلبي، وقعتها بقلم وثلاثة مخالب،

حضرتُ إلى مقر عملي منذ ساعات الصباح الأولى وانتظرتُ في مكتبي حتى جاء المدير فذهبت إليه.

دخلت وخطاب الاستقالة في مخالب اليمنى بينما حركت مخالب اليسرى في وجهه إمعانا في تخويفه. أدرت معه مزاحا غليظا حتى انتصب مذعورا. واصلت فمرّرت مخالب اليسرى على وجنتيه فتراجع حتى حُشِر في زاوية قصية. قلت له: ما عدت حريصا على وظيفتكم، ولا على هذا البرد القارس الذي يسري في عظامكم، مللت فقررت الاستقالة، بل وترك مدينتكم التي لا تحرك ساكنا ولا تسكّن متحركا.

كففت وابتعدت عنه قليلا لتهدأ نفسه. هدأ بالفعل واطمأن واقترب من مكتبه وجلس، قرأ خطاب الاستقالة ثم وقّع عليها، وقّع عليها حتى من غير أدنى مجاملة. وددت لو قال لي راجع نفسك، لو قال سنخسرك. وقّع عليها وناولني الورقة وكأنه يناولني هدية قيّمة.

تناولت ورقة الاستقالة ودمي يفور يغلي غليان المرجل. تناولتها بمخالب اليمنى بينما أدخلت مخالب اليسرى تحت صدغيه. أخذت أمررها وهو يتلوى ويبتعد، أمررها من صدغه الأيسر إلى صدغه الأيمن مداعبا نحره المترهل، أمررها وهو يتلوى فزعا بينما كنت أقهقه.

أصبحت الان بلا عمل في مدينة لا تعرفني ولا يعنيها أمري. ليتني قبلت وجوههم الواجمة أبدا كي أعيش، ركلت النعمة في ساعة طيش. تركت مدينتي التي تعرفني إلى مدينة لا تعرفني، هربت من مراقبة الناس لي إلى مراقبتي للناس، وهذا أنا الآن مثل متسوّل في بلدة لا أبواب لبيوتها.

قلت لنفسي: تبّا لعقل لا يستيقظ إلا بعد أن ينام القَدَرُ. حدثتني نفسي بالعودة لمدينتي خاصة مع تسارع نفاذ محفظتي. أعود وأتحمل فضول أهلها؟ فكرت طويلا ثم صرفت النظر عنها.

حملت حقيبتي وقررت السفر فأرض الله واسعة، لا هذه المدينة الواجمة ولا مدينتي الأولى المتطفلة. المدن كثيرة وعليّ أن أبحث، المدائن خُلِقْن لنا ولكن لكل منا مدينته، ومثلما كانت مدينتي لا تصلح لي فإني كذلك لا أصلح لهذه المدينة. فتش في كل غربة عن مدينة تعرفك، تحرث ملامحك وتسقي غراسها. سافر ففي الأسفار فائدة واحدة، تجد عملا حتى ولو كانت مخالبك بشعة، ولو كان جدّك نباش قبور وكانت جدتك سارقة مواعين. ما دمت قد نجحت في استرداد عقلك فلا تخش السفر. هناك ستجد القَدَرَ يقظان لم ينم بعد، ستجد أبوابا كثيرة حتى لو أخفق بك حظك وأخذك يدا بيد إلى أبواب التسوّل.

دخلت المدينة محبطا، لكن ذلك الإحباط قد تهاوى في ضحوات اليوم التالي. رفعت رأسي إلى السماء فوقي، ابتسمت لها ابتسامة حب لا ينقطع، قلت له شكرا لك في عُلاك يا قيوم السماوات والأرض. شكرت الله وأطلت فقد وجدت عملا أقسم أن الله قد خبأه لي في هذه المدينة، خبأه لي حتى جئت فالتقطته التقاطا.

هذه المدينة التي دخلتها ليلة البارحة وجدت فيها اليوم عملا. دخلتها البارحة خالي الوفاض لا أقدر على استشراف غدي، دخلتها كالمنبوذ أو كالمطارد، دخلتها خائفا، أترقب بعين وأتحاشى عيون الناس بعين أخرى، واليوم وجدت فيها عملا.

عمل ليس مثل أي عمل. عمل أقوم به وأنا في بيتي. في بيتي وبمفردي، لا عملاء ولا زبائن ولا زملاء، لا عيون ولا أنوف ولا آذان!

راقت لي هذه الوظيفة، تمنيت لو كنت فيها منذ البداية. قلت لنفسي وقد انصرم يومان من العمل: كانت مشكلتي مع الفضوليين داخل العمل وخارجه والآن لا داخل لهذه الوظيفة ولا خارج. وحدي أنا وهاتف الشركة

واتصالات العملاء، أتحدث معهم دون أن يروا يدي. بعضهم يشتكي فأرفع شكواه للشركة. بعضهم يبلغ عن خلل فأرفع لقسم الأعطال. بعضهم يسأل فأجيب أو اصرفه إلى من يجيب.

قلت لأول عميل يهاتفني: أهلا وسهلا كيف أستطيع خدمتك؟ وهذه عبارة جاءت في دليل الوظيفة الذي استلمته مع الهاتف والحاسوب. حفظته عن ظهر قلب وأصبح يصدر مني تلقائيا مثل سعال أو عطاس. قال لي أنه يرغب في تقديم شكره لي فقاطعته. قاطعته حتى لا يضيع وقتي فقلت له أنا هنا لخدمته وخدمة غيره من العملاء فكيف تشكر من يتقاضى مالا كي يخدمك؟ ثم قلت معاتبا: أنت وأمثالك من الناس تضيعون أوقاتكم وأوقات الموظف فيما لا طائل من ورائه.

غضبت كثيرا حين جلجلت ضحكته في أذني. كدت أقول له ضحكتك هذه كأنما نُسِجَتْ من نهيق حمار لكني خشيت سوء العاقبة، خشيت أن يرفع أمري لمديري فتكون الكارثة. عندما حاصرتُ الكلمات في قاع حنجرته قرر أن يلج إلى صلب الموضوع بلا مقدمات، قال: أنا مديرك يا ولدي وقد أدركت الان مدى إخلاصك. أنت موظف مخلص ومن حقك علينا أن نشكرك.

ارتعدت فرائصي فقلت لنفسي: لم يبق على هذا العميل سوى الادعاء. صرخت فيه أن يصمت صونا للوقت، صارحته بأن مديري لا يتحدث معي من وراء حجاب. وبالغت في الكذب فقلت: فم مديري في أذني وفمي في أذنه يا حضرة!

بعد أن سمع ما قلت، أقسم أنه مديري فغضبت وأغلقت الهاتف في وجهه. أغلقته وأنا فخور بما فعلت، إذ لا وقت عندي لمزاح سخيف. لا أصدق ولن أصدق أنه مديري، حتى لو حلف بالطلاق. مديري ويشكرني؟ يشكرني ولما يمر الأسبوع على وظيفتي بعد؟

قلت للمتصل الذي أعقبه: مرحبا، وقلت له كيف أستطيع خدمتك يا سيدي فإذا به هو، هو نفسه الدعيّ الأخرق. هممت أن أغسله غسلا بكلام كأن طلعه طلع شجرة الزقوم لكني ضبطت لساني، ضبطت لساني حتى لا تفلت كلمة تقذف بي خارج الوظيفة. قلت أجرب التوسل على مافيه من ضعف أمقته فتوسلت إليه برب السماوات السبع والأرضين السبع وما بينهن أن يكف عن المزاح فأقسم أنه لا يمزح!

قلت في سرّي: عليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين من عميل أخرق. ثم قلت بلسان المتأدب أنه عميل محترم وأن اسمه يظهر على شاشات شركتنا بخط النسخ إمعانا منّا في تقديره. قلت له أيضا وقد دخلت في نوبة كذب ممجوج أن اسمه على شاشات شركتنا محفور حفرا لأنه عميل متميّز. ولأنني قد خبرت ولع البشر بالتطبيل فقد أضفت: اسمك مكتوب على شاشات شركتنا باللون الذهبي، هذا معناه أن جائزة سنية تنتظر الوقت المناسب لتصل إليك.

أحسست بانغلاق تفكيره فرأيت الانتقال إلى مرحلة أشد حسما قلت له: يا عزيزي العميل، استحلفك بربك ماذا تريد؟ هل تخطط لحيلة تنال بها امتيازا. يا عزيزي أنا موظف جديد، هل تعي معنى أن أكون موظفا جديدا. موظف جديد فعلى أي شي يشكره مديره العام؟ على أي شيء يشكرني المدير ولم أعمل شيئا بعد؟ هل فهمت الان أنك عميل أخرق تحرث في البحر؟.

رد عليّ بلطف أقلقني. طلب مني أن أنصت حتى ينتهي فقلت له: حاضر. قال لي: أنت أتيت إلى مكتبي منذ يومين؟ قلت: (حتى لا أقول له نعم) أكمل، أكمل. أخذ يتحدث عن زيارة البحث عن وظيفة، وصف ما حدث يومها وصف شاهد عيان. تحدث بذاكرة كأنها الكاميرا وأنا أتفرّج، أتفرج على ذلك الحدث ثانية بثانية. السلام عليه والجلوس بين يديه، تقديم الملف الذي فيه اسمي وصورتي وكل وثائق عمري. قراءته لأوراقي وموافقته على توظيفي، كل هذه التفاصيل مررها على مسامعي حتى كنت كأنني أراها في الوقت نفسه.

لم أشأ أن أتعاطف معه رغم ذلك العرض السينمائي الشيّق. أحسست أن كلمة نعم لم تنضج على فمي بعد، لم استوعب حتى الان أن يتصل بي مديري ليشكرني. نصحته أن يكف عن الثرثرة فالهاتف للشركة وليس لي، الهاتف للشركة وهناك عملاء بحاجة لمساعدتي. ركبتُ خيل جنوني في هذه اللحظة، سخرت منه، أمعنت في سخريتي فقلت له: حسنا، انت المدير، أيكفيك هذا يا صاحب السعادة؟.

عاد إلى مكينة اللطف ثانية وكأنني لم أرتكب نُكرا. شرع يتحدث عن العصاميين في الأرض، عن الذين شقوا طريقهم رغم أنف الظروف، الذي حفروا في الجرانيت مسالك عبروا منها للمجد. تحدث عن شخصيتي العصامية كما قال، عن يدي ذات المخالب العشرة التي لم تحل بشاعتها بيني وبين الناس!

قال أيضا أن تلك المخالب المخيفة لو كانت عند غيرك لأقصته بعيدا عن الناس لكن الحال مختلف معك. امتدح معنوياتي، وصف روحي بأنها تنشر الجمال في كل مكان، تجوس الديار وتطوف المدائن وتنتقل من شارع إلى شارع، وتصر على مقاومة القبح.

قال عني كلاما كثيرا حتى نسيت من أنا. تمنى أن تعثر عليّ وسائل الإعلام العالمية ليقتدي بي الناس، بل حلف بالطلاق أنه خطط جديا للبحث عن قناة تلفزيونية عالمية تقدمني للعالم وتوثق عصاميتي.

خارت قواي فسقطت السماعة من يدي، كان الكلام كبيرا والرجل ليس قليل شأنٍ أبدا. كان ما يزال يثرثر وكنت أسمع كلامه مثل خصام جيران من وراء الحائط فتركته يواصل والسماعة على الأرض. تركت جهاز الحاسب الآلي مفتوحا، تناولت حقيبتي، وضعت فيها قرن الكرواسون، أغلقتها بإحكام ثم وضعت عمامتي على كتفي وغادرت المكان.

المواكب

أحببتها كثيرا هذه المواكب، عشقتها حتى باتت جزءا من يومي. أهلها أهلي، واصحابها صحبي، وعلى وقع خُطاهم الحثيثة أنسج أحلامي. أتحرك معها إذ تخرج من الباب الكبير، أسير بمحاذاتها حينا، وحينا – كما هو حادث الان– في قلبها. أصمت إذا صمتوا، وأجهر إذا علت أصواتهم. أفرح كثيرا إذا تعددت المواكب. أتنقل بينها، انتقل من موكب لآخر وجميعها تخرج من الباب الواسع الكبير وتتجه غربا. أراقبها وأراقبهم جيدا، أراقب الأيدي والأقدام والأفواه والمحاجر، أراقبهم وأجعل وجهي طوع أعينهم.

هناك قبيحون في هذه المواكب، وهناك قبيحون جدا، وهناك الأشد قبحا ومنذ قليل كان بعضهم يسعى لإخراجي. حاول لكني تشبثت بالموكب، ضاق بي ذرعا فصرفت عنه وجهي، ألحّ علي فانتقلت للضفة الأخرى. أغراني بالمال فأغنيته بكبريائي، احتدّ حتى سمعت صرير أسنانه فتجاهلته، صفعني على وجهي فصفعته بصبري، لوى ذراعي ففتلت يدي وخرجت سالما. دفعني فانحدرت بعيدا عنه، بصق في وجهي فمسحت وجهي بطرف كمّي، تركته يفعل ما يفعل فهذه المواكب لي، هذه المواكب قدري.

يتسعر الحنق في داخلي وتتكسر في حلقي الأسئلة، كيف لا يشغلهم جلال الموكب؟ ولا هيبة هذا العرش وهم يحملونه فوق رقابهم؟ ولا أبّهة صاحب العرش وهم يسيرون تحته أذلاء، أنوفهم منكسة وأنفه للسماء؟

كل ذلك ولا يشغلهم كائن سواي. كل واحد منهم يريد أن يقول شيئا. يشتمني، يصفني، يضع وسما على خدّي، ينازعني مكاني في الموكب، يتبرم، يحتد، يدفعني للخارج، يرمقني شذرا، ينصح وهذا أضعف الإيمان.

ذاك القبيح على أطراف الموكب، أو قل الفضول الذي يمشي على قدمين. اقترب مني وهو يقول مسكين. أما الأقبح الذي كان يمشي خلفي فقد قال مسكين مجنون. بينما قال الأشد قبحا: مسكين مجنون ملعون. ثارت

ثائرتي دون أن يتمعر وجهي، قالوا مسكين ولست بمسكين على الإطلاق، مجنون وما كنت كذلك، ملعون وما أنا بملعون، لا مسكين ولا مجنون ولا ملعون! كيف أمشي يوميا في هذه المواكب الباذخة المهيبة وأكون مسكينا؟ كيف أتجنب أذاهم وأكون مجنونا؟ كيف أكون ملعونا ورحمات ربي تتنزل عليّ؟

يصل الموكب غايته وقد أخذ مني التعب كل مأخذ. تعب جسدي وتعبت روحي، وهم أيضا تعبوا. تعبوا فالحمل ثقيل جدا. أنزلوه من فوق رقابهم وحملوا صاحبه، أنزلوه في حفرة عميقة وعندما استقر في أسفلها دفنوه وذهبوا.

سيرة بطل ملحاح

سمعت من يناديني بصوت عال. التفتُ وشرعتُ أُقلِب وجهي في فناء المدرسة. كان الفناء غابة من الأجساد، والطلاب كانوا في ساعة الفسحة وقد اكتظ بهم المكان. تختلط أصواتهم فلا تبين حروفهم عن شيء. أعاد النداء فاقتنصتُ موقعه هذه المرة. لوّح بيده ولوّحت فأقبل نحوي. هو من خيرة الطلاب ومن أكثرهم تأدباً. يهوي به تأدبه أحيانا إلى الدرك الأسفل من الخجل.

وصل فتصافحنا وتبادلنا السؤال عن الحال. أخرج من جيبه قصاصة وسأل: أهذه صورتك يا أستاذ؟ قلت: أرني إياها. تناولتها من يده. علّقت نظارتي ودققت. قلت: نعم. هذه صورتي. ثم أضفت: هذه الصورة تظهر بجوار مقالاتي. سألت: كيف وصلت إليك؟

أعدت له القصاصة بينما كان يجيب. قال بأنه وجدها في جريدة ما، تعرّف عليها فاحتزّها ليأتي بها إليّ. شكرته ولكني خشيت أن يربي شكري له سذاجة مفاهيمية غير مستحبة فقلت له: كاتب المقالة ينتظر نشر مقالته عادة. إما أن تُبلّغه الصحيفة، وإما أن يكون لمقالته يوم معلوم، وإما أن يتابع الصحيفة كل يوم. وفي جميع الأحوال لا تخف على الكاتب، سيجد مقالته وصحيفته قبل أن يجدها غيره. أرخى تلميذي النجيب عينه ثم رفعها نحوي وقال: هل تسمح لي بسؤال يا أستاذ؟ أجبته بأننا في مدرسة والمدرسة محضن السؤال والجواب، ثم قلت له تفضل.

كان سؤاله عن معنى كلمة مقالة. هذا السؤال أنقض ظهري وفتّ في عضدي وجعل لساني حجرا أقلبه في فمي. جاء السؤال مثل مفازة اعترضت طريقي في مسيرة على القدمين. الطالب الذي أمامي هو الآن في مرحلة متقدمة من التعليم، والكلمة شائعة جدا متداولة جدا، ليست وحشية ولا

منقرضـــة ولم أنتزعها من بطون القواميس، هي بنت الأوســـاط المتعلمة والفئات المثقفة.

قاومت إحباط السؤال فقلت في داخلي: جهله بالكلمة عار صنعته أنا وباقي المعلمين. صنعته المدرسة بكل ما فيها ومن فيها. عدت إليه. بسطت له الحديث حولها، نزلتُ نحو جذورها الأولى، تســلقتُ أغصـــانها وفروعها حتى لا أدع في رأسه ضلالة ولا حتى بقية من ضلالة.

كنت على وشك توجيه نصيحة للطالب. نصيحة لا مكان لها أو هي نصـيحة لم تنضــج بعد. سـتخرج الكلمات من فمي باردة، مثقلة بالأكاذيب، وسـوف تأتي مثل محاكمة يُدان فيها البريء وتُخلى فيها سـاحة المجرم وقد يمنح مرتبة. ما الذي كنت سأقوله في نصـيحتي وأنا أولى بها، كيف أعاتب التلميذ والمدرسة أجدر بالعتاب وبالعقاب معا.

شـعرت وأنا أقف أمام هذا التلميذ بأن قضـيته مع الكلمة التي يجهلها قضـية كبيرة واسـعة مترامية الأطراف. هي مأسـاة طائرة ورقية صـنعناها من الورق وتحتاج دائما إلى ريح تنفخها لترتفع. أربكني الشـعور بالعجز وتمنيت لو خطفني مارد عفريت وأسدل الستار على ضياعي.

قرع الجرس فأنقذني، أنقذ نفسـي من نفسـي، آذن بزوال وقت الفسـحة فانصـرف الطالب وبقيت واقفا، تحرك موج الطلاب فلما خليَ الفناء تحركت أنا.

شــغلني هذا الأمر بقية يومي، أقلبه داخل رأســي في المدرســة وفي بيتي. ما تركت كتابا في البيداغوجيا إلا طالعته، أبحرت في محيط قوقل، نبشـت ركام تجربتي بحثا عن فكرة، نبشـت الغبار عن ذاكرتي فوجدت شـيئا وغابت أشــياء. قلت أحمل ما تجمع عندي وأضـــعه غدا بين أيدي زملاء المدرسة. لا بد من طرح القضـية برمتها بين أيديهم، همّتان أفضـل من همّة

واحدة وثلاث همم أفضل من اثنتين والأربع أفضل من الثلاث. نتقاسم الهم قبل أن يقاسمنا معيشتنا، نتدارك ما فات قبل أن يفوت بنا. المعلم سادن حضارة الأمة، حامل مفاتيح مجدها، والتلاميذ غدها المشرق، التلاميذ سواعد بناء لا ضحايا في مذبح.

قصصت القصة على المدير والوكيل والمعلم والخبير. كان المدير ينصت جيدا ويخرج قلما من جيبه في الوقت نفسه، ما إن أتممت كلامي حتى طلب اسم الطالب والصف الذي يدرس فيه فلم أخبره بشيء، أعرف تماما هذه اللهجة. إذا سأل المدير عن اسم الطالب وصفّه فقد بيّت نيّة خسْف. أعاد السؤال بأدب غاب عن السؤال في المرة الأولى فقلت له: لماذا؟ لم يجب، لكنه كرر الطلب: أعطني الاسم والصف وسوف أتدبر أمره. قلت له: لن أفعل، أعرف أنك تخبئ له عصا غليظة، ثم أردفتُ: تعاقبه على جرم لم يرتكبه؟ قال والزبد على شدقيه: هذا الطالب حمار والعصى قد خُلِقت للحمير.

لم أتقبّل العبارة الأخيرة، لم ولن أقبل بها حتى لو كلفني ذلك وظيفتي. عبارة لا تناسب المكان ولا المهنة التي نحن تحت رايتها. عزمت على المقاومة، عزمت لكني قررت تخفيف اللهجة تأدبا. ابتسمت ولا أدري كيف كان وقع ابتسامتي على المدير، لا أدري كيف رأتها عيناه.

أخرجت كلامي من قعر ابتسامتي وقلت: أخشى أن يكون الحمار غير الطالب فنضربه ظلما وعدوانا. هذه العبارة كانت مثل فتيل أشعل قنبلة، عبارة أخرجت الوحش الكاسر من داخله، استشاط غضبا، وصفني بالغرّ قليل التجربة. هددني بكتابة محضر ورفعه للمرجع. بذل الوكيل والمعلم والخبير جهدا كبيرا في تهدئته، ثم تصاعدت التهدئة إلى ذبح خروف سمين ترضيَة للمدير.

قبلت ذبح الخروف فانفرجت أسارير المدير وتهلل وجه الوكيل. ارتفع شـــأني عندهما، وعند المعلم والخبير، فتبدل الحال في طرفة عين. رأيت المدير جذلان قلت أســـتفيد من هذا الظرف. اشـــترطت عليهم أن نناقش القضـــية بعد أن نأكل الخروف. تحمّس المدير وقال بهذه الطريقة لا مانع عندي، نتطارح القضـــية هناك، نتطارح حولها في البريّة فالمدرســـة مكان عمل وليست مكانا للثرثرة.

عجبت أن يصف القضية بالثرثرة، قضية تربوية يسميها ثرثرة؟ قضية تعني المدرسة قبل غيرها ويقول البريّة مكانها. لم أشأ تصعيد الأمر وصب البنزين على النار، فرحت بقبول المناقشـــة ولا يهمني مكانها، ولذلك سـكتُّ عن الكلام المباح.

في البرية حيث الموعد، كان المدير يجلس على برميل صـــغير قد كُفي على فمه، يلفّ على رأسـه منشـفة وردية، أمامه قدر في داخله خروف يسبح في بحيرة من الحميم. والوكيل بدوره كان يجلس بالقرب من مَلّة ملئت جمرا، يتناثر حول المَلَّة أباريق وأكواب منهكة مســـتهلكة، كأنما جاءوا بها من برميل زبالة. عرفت من الزملاء أن المدير ماهر في طبخ الأرز واللحم، لا يترك أحدا يشاركه. والوكيل ماهر في إعداد الشاي ولا يقبل مساعدة من أحد. أكبرت فيهما هذا التواضع فندمت على مواقفي منهما وقررت أن أتغيّر فالتغيير سنّة من سنن الحياة. من صباح الغد سأكون مختلفا.

خجلت أن أكون المضيف وأترك ضيفي يطبخ العشاء، لكني تذكرت كلام الزملاء عن طبيعة المدير فقلت لنفســـي: لا بأس مادام قد اختار ما يفعل. اسـتحضـرت أيضـا قول الشـاعر: يا ضـيفنا لو جئتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل.

تجاهلت الأمر، تجاهلته لكن هواجس العيب لم تدعني أســـتمر في تجـاهلي. قلـت لنفســـي: أقف إلى جواره دون تـدخـل مني، أقف ليعرف ويعرفون أن في وجهي بقية من حياء. نهضـت ومشيت حتى وقفت بجواره. مـا إن وقفت حتى قـال لي بغلظـة: عد إلى مكـانك، أجلس على (ط....) هناك حتى يأتيك العشـــاء. أذعنت للأمر وانصـــرفت. عدت إلى مكاني، جلست على (ط....) حتى جاء موعد العشاء.

لم تتغير وتيرتنا أثناء العشـــاء عنها قبل العشـــاء. نكات وشـــائعات وحوادث يتخللها عمائر وسيارات ومغامرات. العشـاء نفسـه كان لذيذا، كانوا كالوحوش الكاســـرة إذا اجتمعت على طريدة تم افتراســـها للتو أما أنا فقد أشـغلني الندم. كانت نفسـي اللوامة تأكل بعضـها. كيف أسـأت فهم المدير ووكيله؟ رجلان على هذا القدر من التواضـــع وتلك الروح الخدومة لا ينبغي مجافاتهما. وقلت لنفسي في السياق نفسه: هذا الطبخ تقف خلفه ذائقة عالية المزاج. وذاك الشاي تقف خلفه مهارة رغم قذارة الآنية.

قررت أن أكسـب ودّهما. لا بد من صـفحة جديدة معهما تفتح أمامي آفاقا لا حدود لها، سيكون اجتماع الليلة فاتحة خير، خاصـة وقد أعددت له ورقة عمل مدروسة بعناية.

نهض المدير فكان أول الناهضـين. تناول كيسـا من الخيش مسـح به يده وفمه، خلع المنشـفة ولبس عمامته، اسـتدار نحونا وقال تصـبحون على خير.

عقدت الدهشـة لساني، قلت لنفسي: كيف يذهب ويترك اجتماعنا؟ ما إن أتممت تســاؤلي حتى لحق به الوكيل والخبير. لما رأيت وجوه المدرســة تغادر المكان نهضت، ناديت المدير وكانت قد ابتلعته سيارته.

لحقت به قبل أن يتحرك، ذكّرته باجتماعنا، جمع حاجبيه في منتصف جبينه، شرع ينقر بأصابعه على قوس المقود، التفت وطلب أن أذكّره بذلك غدا، قلت له متسائلا: والليلة؟

تساوى عندي الإحباط والأمل. اتفقنا بالأمس على الاجتماع وهاهم الثلاثة الكبار يغادرون الاتفاق كما يغادر الثعبان جُبَّته، لكن وعد الغد قد أبقى في النفس بعض الأمل. عدت للزملاء الذين فضلوا البقاء في مكان العشاء، قال لي أحدهم: لقد خلقك الله زعيما لكنك أتيت إلينا خطأً.

ضحكوا وضحكت وقبل ان أسأل قال آخر: أنت تحب الاجتماعات ولا يحب الاجتماعات إلا الزعماء. ضحكوا وضحكت أيضا، سألني أحدهم: ماذا تريد من الاجتماع؟ هل ستحرر فلسطين؟ قال آخر متهكما: إذا حررتها لك نصفها. تعالت ضحكاتهم وضحكت معهم.

وجدت أن الليلة قد تحوّلت إلى مسرح "ستاند" للسخرية مني، أو الطقطقة عليّ كما هو التعبير المتداول. حاولت إغلاق دائرة الشيطان فقلت لهم: أنا لست متعلقا بالاجتماعات لكنها مهمة لنا، شئنا أم أبينا. نحن نتحمل أمانة عظيمة، نتحملها ونواجه في حملنا لها صعوبات جمة. نلقى نجاحا في بعض الأحيان وتصدمنا الإخفاقات في أحايين أخرى، لذلك لا بد من تبادل الخبرات والآراء، وليس أفضل من الاجتماعات بيئة لذلك.

قلت ما قلت ثم غاب صوتي في غيهب صمت عجيب. أطرق كل واحد منهم وتسمرت عيناه في الأرض، شتتني صمتهم، هل أَعْجَبْتُهم فندموا على ما قدمت أفواههم من السخرية؟ أم تراهم قد استعادوا عقولهم فآثروا تدبر ما قلته في صمت؟ أم هي السخرية في قميص مختلف؟

استمر الصمت. استمر وأنا أسترق النظر لهم وجها بعد وجه، تأكد لي أن صمتهم لم يكن سخرية فوجوههم كانت جادة، إطراقهم كان إطراق

معتبر يدرس الخيارات، يبحث عن مخرج. اعترتني نوبة من زهو عارض فأضفت: المعلم سادن حضارة الأمة وأمين مستقبلها، التعليم بلا معلم واعٍ يغدوا طائرة ورقية.

استمر الصمت المريع وإن هزّ بعضهم رأسه. زاد صمتهم عن عشرين دقيقة، صمت يوازيه إطراق عُبّاد في جلسة التشهّد الأخير. واصلت الإطراق معهم. ارتفع الوقت إلى نصف ساعة، وبينما أنا معهم في محراب الإطراق إذا بواحد منهم ينفجر ضاحكا. ظل يضحك مثل السكران، ضحك ثم جر آخرين إلى الضحك، وفي ثوان قليلة احتدم المكان ضحكا.

صحوت اليوم مبكرا ولبست ثيابا زاهية فأنا اليوم عريس. وصلت المدرسة ومعي كل قصاصة وكل ورقة وكل معلومة تثري اجتماع اليوم. عبرت من أمام مكتب المدير فوجدته مغلقا على غير عادته. توجست خيفة لكني قلت ما كان يردده أبي: الغايب حجته معاه.

أنهيت درسي في الحصة الأولى وخرجت سريعا. توقفت أمام مكتب المدير الذي استمر مغلقا، تلفت يمنة ويسرة، رأيت الخبير يعبر بالقرب مني، لحقت به وسألته عن الاجتماع. قال لي أنه لا يتدخل فيما لا يعنيه وهذه مسائل تخص المدير وحده، قلت له وأين المدير؟ مكتبه موصد الأبواب، ردّ عليّ بفظاظة: اسأل أمه، اسأل أم المدير، هي وحدها من يعرف عنه كل شي.

شق عليّ أن يغيب المدير. قلت لنفسي: لو أقنعت الوكيل بالاجتماع اليوم ونعرض النتائج على المدير غدا، ماذا في ذلك؟ قلت ذلك للوكيل فابتسم. أفتر ثغره عن أسنان مثل تلك الآنية التي كانت أمامه في ليلة الخروف. ابتسم وأشار إلى كرسي أثير على يسار مكتبه وقال: تفضل.

جلست وإذا به يوجه لي سؤالا كأنما يوجهه لواحد من أبنائه الصغار. قال لي معتقدا أنه على قدر كبير من الذكاء والدهاء: هل تستطيع السير من غير رأس؟ قلت: لا. قال: وهل تستطيع الكتابة من غير رأس؟ قلت: لا. قال: لو كنت جائعا وأمامك مائدة عامرة هل ستأكل منه ولا رأس لك؟ قلت له: لا. قال: لو غاب عنك ابنك حشاشة فؤادك سنين ثم التقيته، هل ستحضنه ولا رأس لك؟ قلت له: لا.

اعتدل في جلسته وقال: أرأيت؟ لن تمشي ولن تكتب ولن تأكل أو تفعل أي شيء على الإطلاق مالم يكن رأسك معك! استمعت إليه وأنفاسي تدور في داخلي برباطة جأش. تقنّعت بقناع من رضا حتى ظهر له أني مقتنع بما قال من سخف ثم قلت: سبحان الله، فعلا لن أمشي ولن أكتب أو آكل وأنا بلا رأس.

ضحك منتصرا ثم قال: والمدير مثل الرأس، بل هو رأس المدرسة. وما دام هو رأس المدرسة فكيف بالله عليك نجتمع في غيابه؟ المدير مثل الرأس تماما، هل فهمت؟ قلت له: نعم فهمت، فهمت أنك غبي جدا، بل لا عقل لك على الإطلاق، إلا في إعداد الشاي فأنت ابن بجدته. كيف يكون المدير رأسا للمدرسة وهذه هي المدرسة منتظمة في يومها الدراسي. هل توقفت المدرسة لغياب المدير؟

غضب الوكيل مني غضبة عرمرميّة. قال لي وأضراسه تكاد أن تتفتت في أقصى فمه: يا أخي لا نريد اجتماعات ولا خطط ولا برامج. أقلقتنا يا رجل. لم يمض عليك بيننا شهر واحد، ومع ذلك تلوب مثل الحية. أريد المدير، أريد اجتماعا، التعليم في خطر. شغلتنا ياخي أشغلك الله بنفسك.

كان الخبير وثلة من المعلمين قد تقاطروا على المكان، ويبدو أن وجودهم قد أشعل حماس الوكيل فأضاف: يا أخي لقد أصبحتَ مكروها هنا. المعلمون لا يريد أحد منهم أن يراك هنا، الطلاب والحيطان والممرات والشوارع كلها لا تريد أن تراك. حاولت الرد بما يوازي إهانته لي فاقتربت منه، أفلتت من لساني كلمة نابية ما كنت أتمناها أبدا، اقتربت منه أكثر وقلت له: طز.

هذه الكلمة كلفتني خروفا آخر، كلّفتني كبشا أقرن حكم به الخبير وبعض المعلمين ترضية للوكيل. تألمت كثيرا لأني خرجت عن أدبي وليس لأنني سأذبح خروفا لترضية الوكيل. تلك العبارة المشينة قد أظهرتني بخلاف طبعي، وعلى نقيض تربيتي. قدمتني للآخرين بخلاف ما أتمنى وعكس ما أستحق. عفا الله عنهم فقد "*حدّوني على أقصى ما عندي*" كما تقول عبارتنا المحلية.

ندمت كثيرا حيث لا ينفع الندم. لعنت الوكيل والساعة التي جمعتني به فهو مثل دلو الطين. دلو الطين لا يغرف إلا طينا، لو غرفت به ماء لتسرب الماء عبر ثقوبه الكثيرة. هذا الوكيل أبى أن يغترف من تجربتي، أبى إلا أن يغترف من طيني فجاءت كلمة طز صفعة على وجهه، لكنها ارتدت بعد ذلك إلى وجهي وها أنا أتلظى بسعيرها.

مضت ليلة الخروف الثاني مثلما مضت ليلة أخ له من قبل. ليلة تم استنساخها بدقة. المدير والقدر والمنشفة وأبخرة اللحم، الوكيل والملّة والشاي والآنية القذرة. السُمار، والنكات، والشائعات. الوعد باجتماع تكرر تأجيله.

خروج المدير والوكيل والخبير. لحقت بالمدير وأمسكت بذراعه. سحبته معي سحبا باتجاه جلسة العشاء، قلت له ولهم: أنا موعود بتحقيق الاجتماع هذه الليلة وأنت تمسح يدك وتنصرف؟ ضحك المدير وضحكنا

معه، تلطف معي على غير عادته، ربّت على ظهري، قال لهم ولي: أعدكم وأعد هذا المعلم الدؤوب المخلص بأن يرى غدا ما يســـرّ الجميع. ثم التفت نحوي وســـأل: هل ارتحت؟ قلت له على الفور: إن كان هذا وعد منك فقد فرحت. قال: وأقسم لك على ذلك.

خرجت باكرا في أبهى الحلل. انطلقت مستبشرا نحو المدرسة، دخلت من باب رأيته أكثر اتساعا منه في أيام مضت. المدرسة نظيفة لمّاعة كأنما جُليت للتو، الطلاب كانوا أنظف وأحلى وأتمُّ ترتيبا. وجدت مكتب المدير مفتوحا لكن المدير غير موجود، قلت لنفسي: لا بأس، الرجل قد أقسم وهذا مكتبه مفتوح.

حملت نفســـي نحو الدرس الأول. دخلت وســـلّمت وأغلقت الباب من ورائي ثم شـرعت في درس اليوم وكان عن همزة إن وأحوالها. قاطعني طرق على الباب، فتحت، ناولني مراقب المدرســة مغلفا. وضــعته أمامي وأتممت الدرس. خرجت على قرع الجرس، فتحت المغلّف، قرأته مرة ومرتين، ابتلعت ريق الأسى ثم توجهت صوب سيارتي خارج المدرسة.

بوصلة الجحيم

أحببت هذا المقهى رغم عمري الطويل الذي اجتنبت فيه المقاهي. أحببته أو اصبحت الآن أحبه. الآن فقط لأنه يجمعني بالهاربين من الموت. هاربون من الموت وما يدري أحد منا أن الموت قد يكون واحدا من رواد المقهى نفسه، وهذا ما كان بالفعل.

قوّات المعارضـــة فجّرت المقهى ومع أول التفجيرات نجوت بنفســـي. اشـــتعل المقهى كله دفعة واحدة وتطاير مزقا في الهواء رأيناها رأي العين. مات من مات، وسلم من سلم، فكنت من بين السالمين ولست أدري كيف نجوت. الذي أتذكره أنهم هربوا وهربتُ. هربنا جريا كأنّ أعناقنا أعناق النعام فسلم الهاربون وسلمت معهم.

تركنا المقهى وراءنا بحثاً عن ملاذ آخر. كدنا أن نصـــل إلى الملاذ غير أن قوّات النظام قد سـبقتنا إليه. سـبقونا وفجّروا الملاذ قبل أن نصـل إليه. توقفنا فزعا قلوبنا في حناجرنا. جثا البعض منّا على ركبتيه، وتراجع البعض إلى الخلف.

كان الأفق أمامنا حائطا من نار ولهب فهربنا بحثا عن مكان آمن، أنا مع الهاربين والهاربون معي، لكن نيرانا عدوّة قد فُتِحت أمامنا، فانعطف قطيع النعام وانعطفت معه. دار بنا الفزعُ سـراعا للخلف، ركضـوا وركضـتُ وقبل أن نصل دوّتْ وجبة رابعة من تفجيرات قوة مجهولة.

وقفنا في المنتصـــف كتلة من هلع وضـــعف. كان المكان عاريا بلا ســـقف ولا ظل لكنه كان آمنا. وقفنا فيه بعيدين حتى عن روائح الدم والبارود، بل طاف بنا في تلك اللحظة طائف من نسـيم عليل قد امتلأ بردا وسلاما، وفجأة حلّقتْ طائرات صديقة فوقنا، حلّقتْ ثم أوسعتنا قصفا.

زائر الضحى

للمرة الثانية تخبرني زوجتي عن رجل جاء يبحث عني. قالت له في المرة الأولى بأن عليه – لكي يضمن لقائي– أن يأتي مساء، لكنه جاء في المرة الثانية كما جاء في المرة الأولى عند ارتفاع عمود الضحى. لذلك رأيت ألا أذهب لعملي في اليوم الثالث. لابد من القبض على المرة الثالثة، سأنتظرها ولن تفلت من يدي أبدا.

أمضيت ليلتي على أريكة أتقلب بين نومة ونومة، فلما رأيت النهار يبزغ من تحت أطراف الستائر رفعتها. رفعت الستائر لتمتلئ رئتاي ضوءا. وشيئا فشيئا كانت الغرفة تمتلئ بالنهار الجديد. جلست وقاطعت التلفزيون حتى لا تنشغل حواسي بأي شيء عدا جرس الباب، حتى أصابع الشابورة التي تركتها زوجتي هنا لم ألتفت إليها. حركاتي أيضا جاءت مقتضبة مرشدة مثل خطوات ذئب يتحين فرصة للانقضاض.

ارتفع عمود الضحى حتى تشكلت زاويته الحادة مع قلق الانتظار ولم يقرع بابي أحد. ارتفع حتى قارب الزاوية القادمة فلما بلغها ارتفع صوت الأذان، صليت في رحالي وانتظرت إلى أن مال عمود المساء وحلّ الظلام دون أن يقرع الباب أحد. تركت المكان وتوغلت داخل البيت.

صرخت: ألم يأت أحد؟ أجابت: لعله يئس. جاء مرة ومرتين فاستولى عليه اليأس. قلت غير مكترث: إلى حيث ألقت!

فعلتُ غاية ما أستطيع: تركت عملي، حرّمت على نفسي حتى أصابع البقسماط فماذا أفعل؟ لو أعرف مكانه لذهبت إليه. لو ترك رسالة أو خبرا أو علامة نستهدي بها، لكنه جاء وذهب وخلفه الهباء المنثور.

وللحقيقة فإنه وإن بان مني لزوجتي شيء من عدم الاكتراث، إلا أن الأسف كان يمزقني من الداخل. أوجعتني النتيجة وكنت أمني نفسي بلقاء زائر الضحى، هو لم يتجشم عناء السؤال لمرتين متتابعتين إلا وله حاجة.

يسأل عني بإسمي ويسأل بإلحاح فهل يكون ذلك ضربا من العبث؟ لا أعتقد. الرجل وراءه أمر يستحق مني يوما آخر.

ضحيت بيوم عمل آخر ولم يخب ظني. سمعت جرس الباب فأسرعت نحو الأنترفون، فتحته وقلت مرحبا. كان رجلا كبيرا وقورا على وجهه سمات الرحمة، فيه سماحة ولطف شعرت معهما أنني أعرفه منذ عقود. قال أريدك وقلت له أبشر، مسافة السلم وأكون عندك.

انحدرت إليه من الطابق الثاني لا أدري إن كنت أسير أم أطير. فتحت الباب فامتلأت عيني بوجهه والضحى. قبلت جبينه، فسرت في ذاكرتي رائحته. كان باسما ودودا وكنت مندفعا نحوه.

انحنى نحوي ثم قال: أنا سكنت في هذا البيت وفيه رُزِقتُ بإبني الوحيد. ابني أبصر النور في هذا البيت، في الطابق الأعلى، في الغرفة التي تتصدر الممر، وجئت اليوم لتأذن لي بتصوير الغرفة فقط.

ضحكت، فقد بان لي أن الرجل الوقور قد جاء إلى المكان الخطأ. عن أي غرفة وعن أي ممر وعن أي ولادة يتحدث؟ هذا البيت لم يسكنه أحد غيرنا أبدا. شيّده أبي، عاش فيه عمرا، وقبل أن يموت أبصرت النور أنا، فقرّ بي عينا ولم يسكنه أحد غيرنا.

قلت لزائر الضحى: لقد أخطأت الطريق يا سيدي. هذا البيت لم يسكنه أحد قبلنا أو بعدنا ولعل بغيتك في بيت آخر، ولعله ليس عنا ببعيد.

انتفض وكأنه يسمع مني إفكا. قال لي: أبدا هذا هو البيت الذي انجبت فيه ولدي، وهذه الكاميرا معي وآمل أن تأذن لي بالتصوير.

حاول مدافعتي بلطف فعمدت إلى ديبلوماسية أثيرة لديّ. قلت له يا والدي سيذهب جهدك هباء وأنت تصور مكانا لا يخصك. هذا بيتنا الذي لم يسكنه أحد سوانا.

قبلت لحيته البيضاء وقلت له لماذا لا نبحث أنا وأنت عن بيتك؟ قال لي وهو يسوّق لهدفه: لا تخش شيئا. ان كان المكان هو المكان فقد بلغنا المراد، وإن لم يكن فإن صورة واحدة لن تهدم البيت ولن تنتقص من قدر أهله.

استفزني كثيرا بهذا الإصرار الفارغ فهززت كتفه هزا هينا لينا وأنا أقول له: ابنك لم يبصر النور هنا. إما أن البقر قد تشابه عليك وإما أنك عجوز قد أودى بذاكرته الخرف.

دفعني بيده التي يمسك بها الكاميرا في الوقت نفسه فتصديت له. اندفع للداخل اندفاعا كاسحا، لكن بريقا من اللطف كان يشع من عينيه. صمدت أمامه جسدا لجسد. توسل كثيرا وألح في التوسل لكني قد دخلت في دائرة الذعر وبدأت أتوجس منه خيفة.

تحاشيت النظر إلى وجهه الذي يأسرني بقسماته التي بدت مألوفة. وفي تصرف مشين أغلقت الباب في وجهه واستدرت نحو البهو.

في البهو وقفت أمام صورة أبي. تفرست في ملامحه وكأني أرى الصورة لأول مرة، تمتمت واقتربت وابتعدت ثم استدرت فرأيت زوجتي تراقب. رأيتها بعيدة جدة تنظر من أعلى. بدت وكأنها على فم البئر وأنا والصورة في القاع.

تسعّرت أخيلتي أكثر حتى فار تنور الأساطير والأسئلة. وفي لحظة مبهمة عمياء كنت فيها مسيّرا، تركت ذلك كله خلفي مثل كوم من القش وقذفت بنفسي نحو الباب.

من الجمعة إلى الجمعة

أنا مثل سائر أهل مدينتي الوادعة مؤمن بالله متعلق به، لم يتزعزع ايماني يوما حتى مع غلظة خالي الذي يظن نفسه حامل المفاتيح في عائلتنا. خلق عندي هذا الخال عقدة نفسية. عقدة منه هو لا من التدين، فالتدين صمام أمان للناس. غالبا تراه يلوب جنبات بيتنا مثل ذئب مأسور بحثا عن صورة يطمسها، أو كاسيت يحطمه، أو دمية يمزقها.

سمعت أبي ذات ليلة يجادله حول مسألة التصاوير كما يسميها فأدركت أنه يلاحق الصور بلا هدف، يلاحقها ليطمسها فقط. وعندما وقع في يده كتاب الهجاء الذي أدرسه لم يترك فيه وجها إلا طمسه. ضربني معلمي في اليوم التالي، وحط من قدري حين وصفني بالتلميذ القذر. ساعتئذ ما وجدت للدفاع عن نفسي سبيلا، ولم آت على ذكر خالي خشية أن يضربني، أو يرفع أمري لأبي وأبي سيرى في ذلك سوء أدب مع الكبار.

كنت أحبه لأنه الخال الوحيد الذي يشبه المرحومة أمي، فيه بقية منها. أحبه وأكرهه أيضا، أكرهه لأنه اختزل الدنيا والآخرة في طمس صورة. ضبط عندي ذات يوم مجلة الكواكب الشهيرة فطفق يطمس ما فيها من تصاوير. طمس صورة شادية ووردة ومريم ونجاح وسعاد وليلى وأم كلثوم ونجاة وفايزة وحليم وفريد وفهد بلان وحتى توفيق الدقن أحال وجهه إلى لطخة حبر في وسط الصفحة.

كنت في المرحلة الثانوية يومها فخجلت منه ولم أجرؤ على دفعه. وأسرتي – فوق ذلك– أسرة محافظ، ترى في اقتناء هذه المجلات خروجا على الحياء ومجاهرة بالسوء. لذلك تابعت خالي وهو يطمس وكأنه يفري قلبي بمخرز دون أن أنبس ببنت شفه.

كبرت وأصبحت معلما مفتونا بالكتب والمجلات بينما خالي باق على حاله يلاحق التصاوير يطمسها. كنت أخبئ كتبي ومجلاتي في مخابئ لا

يتخيلها. اخترعت خزانة من الألمونيوم بطول سيارتي وعرضها ولكن بسمك لا يزيد عن سنتيمترات بسيطة. كانت تبدو للرائي وكأنها بطانة واقية، تقي السيارة من أسفل وتحميها من زوائد الطريق ونتوءاته، ومعي عصا طويلة استخرج بها الكتب من قلب تلك الخزنة كما يستخرج الخباز أرغفة الخبز من قلب التنّور. استنسخت الفكرة نفسها وقمت بتثبيتها في زوايا منزلي وفق تمويه معقد. الحداد الذي صنع لي تلك الخزائن لم يكن ليفعل لولا معرفة جمعت بيننا. كل حداد وقفت عليه قبل ذلك كان يتوجس مني خيفة فيعتذر عن صنعها. وأحدهم كاد أن يستدعي الشرطة لولا أن هربت مذعورا من أمام ورشته.

مات حامل المفاتيح فحزنت عليه كثيرا باعتباره بقية من المرحومة أمي. حزنت وفي الوقت نفسه انزاح عن كاهلي هم كبير حيث مات معه الخوف منه. سيكون عندي مكتبة عظيمة في بيتي، أجاهر بها أمام الناس وأتخلص من هذه الخزائن السرية البائسة.

غسلته وكفنته بنفسي اتباعا لوصيته. شاركت أبناءه في إنزاله للقبر. قبلت جبينه ثم خرجت من القبر وعدت لبيتي فاستخرجت دفاتر كان قد أهداها لي. دفاتر أنيقة كان قد دوّن فيها مجموعة منتخبة من الأدعية وأهداها لي.

كثيرا ما كنت أعود إليها كلما نزل بساحتي خطب. أو اشتد عليّ كرب. وهذا أنا احتاجها الان، وسأقرأ ما فيها على روحه الطيبة. أتصدق بأجرها له وأستعيده من خلالها، أستعيده من خلالها لأنها بقية منه مثلما هو بقية من المرحومة أمي.

جلس بجواري عدو لدود من أعداء المرحوم خالي. كنا في آخر أيام العزاء وكان يتعمد أن يجلس بجواري. تحدث عن محاسن خالي وأفاض،

تحدث كثيرا ثم بكى، أقسم لي أيمانا مغلظة أنه لم يكره خالي ولو لثانية واحدة وأن ما بينهما لم يكن إلا من طرف خالي فقط.

يقول بأنه اختلف معه في مسائل فتحول خالي من جار وديع إلى فكٍّ مفترس. تذكرت أن خالي كان يلاحق التصاوير، وكثيرا ما كان يشتكي من هذا الجار ويصفه بالرجل المتساهل. قلت لعدو خالي: كان اختلافكم حول التصاوير؟ قال: نعم. والتصاوير ليست كلها على وتيرة واحده. هناك صور الكاميرا، وهناك صور مسطحة لا أبعاد لها، وصور بارزة ناتئة، وصور مجسمة، الذي نتجنبه من كل هذه المستويات هو الأخير فقط.

انفض مجلس العزاء وبقيت جلستنا ممتدة مورقة مزهرة مثمرة. اتفقنا على مداومة اللقاء ثم استأذن، طلب الانصراف لمشاغل تنتظره. ودعته عند الباب وأنا أقول لنفسي: موت خالي قد أتاح لي رؤية أفكار أخرى. رؤية أفكار مختلفة.

كنت سعيدا بصداقتي الجديدة. سعدت بصديق متديّن لا يطمس التصاوير. كنت أظنهم كلهم سواء فلما جاء هذا فإذا به يصنع اختلافا. راقت لي كثيرا فكرة المستويات التي تحدث عنها، راقت لي ولمست فيها شيئا من العقل. أعجبتني لأنها ستغري الشباب، ستغريهم بالبقاء في عوالم التدين الجميلة.

غادر بعض الشباب بساتين الدين بسبب الموقف من الصورة. يتجهم البعض عند رؤية صورة، رغم أن التصوير أصبح أكثر توفرا من الهواء. بات التصوير جزءا من حياة الناس، تقتطع الكاميرا لحظة من عمر يمرّ عجلان مرّ السحاب، تقتطع الكاميرا تلك اللحظة العابرة ثم تتولى حفظها.

أقمت علاقة حميمة مع عدو خالي، هذا المتدين الجميل الذي لا يطمس الصور. أصبحت ألتقي به كثيرا، وخاصة بعد الصلوات التي تجمعنا

خمس مرات كل يوم. نأخذ جانبا من الطريق بعد كل صلاة، ونستغرق في الحديث، وكل أمر تطارحنا الرأي حوله كنا فيه على وفاق. نودع بعضنا البعض، فأقول في نفسي: سامح الله خالي، كيف يفرط في صداقة جميل مثل هذا؟

فاتحني ذات فجر بأمر. قال لي أنهم يلتقون كل جمعة بين الظهيرة والعصر، قلت من؟ قال أنا ونخبة من طلبة العلم نتدارس الكتب النافعة.

قبلت العرض عندما وجّه لي دعوة بالمشاركة. قلت في نفسي: جاءت دعوته متأخرة ليتحقق مني ويطمئن إليّ ولعلّه قد اطمأن. سألت قبل أن نفترق عن الكتب التي يتم تدارسها فقال أي كتاب نافع. نتناوب اقتراحه، في كل جمعة يقترحه أحدنا.

انتظرت الجمعة الأولى على أحرّ من الجمر. راجعت الكثير من معلوماتي، حاولت إطلاق لحيتي لكنها لم تكن مشجعة، قلت في نفسي: لا يكلف الله نفسا إلا وسعها والدين جوهر لا مظهر.

جاءت الجمعة المنتظرة، توجّب عليّ أن أبكّر للصلاة فاغتسلت وتطيبت وخرجت للصلاة. صليت مع الناس وبعد انقضاء الصلاة خرجت. وقعت عيني على صديقي، أو كما أسميه: عدو خالي. تصافحنا ثم انطلقنا إلى مكتبة المسجد، لم ننتظر طويلا فقد التأم عقدنا وتحلقنا حول طاولة في وسط المكتبة.

تدارسنا في مجلسنا هذا كتابا عن العبادات, تطارحنا الآراء حوله فكان كتاباً قيّما، وكانت حواراتنا أيضا قيّمة. عندما أزف وقت افتراقنا تقدم مني أحد أصدقاء المجلس، قال لي واللطف يعلو وجهه: سيكون كتاب الأسبوع القادم من اختيارك، وستأتينا وقد أعفيت لحيتك. قلت: ان شاء الله.

شغلت نفسي كثيرا بالكتاب المطلوب. كان الكتاب الذي تطارحنا حوله كتابا قيّما ولابد أن يكون الكتاب الذي اختاره كتابا قيّما. الكتاب بصفة عامة يدل على قارئه، فلابد أن يكون الكتاب الذي اختاره دالا على ذائقتي وحسن اختياري، وأخيرا فإن الكتاب المطلوب كما رأوا يجب أن يكون نافعا.

وضعت هذه المحددات الثلاث في اعتباري، وطفقت أفتش في مكتبتي عن كتاب يتماهى معها حتى ظفرت به. كتاب طوق الحمامة لابن حزم. مؤلفه فقيه شرعي معتبر، محسوب على الأدب، وعلى العلاقات الإنسانية، وعلى التحليل النفسي. بل هو أدق ما كتبت العرب عن الحب ومن أكثر الكتب العربية انتشارا بلغات غير عربية.

فرحت بهذا التوفيق الذي لم يتحقق لي من قبل. أمضيت بقية الأيام أراجع الكتاب وأنتظر يوم الجمعة الذي بات كيوم عرس منتظر.

التأم شملنا ثانية في تلك الجمعة وكانت الجمعة الثانية بالنسبة لي. جاء مكاني على الطاولة مجاورا لمكان الرجل اللطيف صاحب النصيحة. مدّ يده بلا مقدمات يتحسس عظمة ذقني، سألني بطريقة ملحّة وكأن له عليّ دَيْنَا: أين هي، أين هي، أين هي؟ ثلاث مرات متتابعات ثم أضاف: كرامة اللحية إعفاؤها.

قلت له مازحا: لو كان لي مثل لحيتك الجميلة هذه لأعفيتها. أغبطك كثيرا عليها وأهنئك أيضا. قال في ازدراء واضح: اللحية ليست زينة. قلت له: وليست منظرا منفرّا، لو أعفيتها لبدت مثل جذور بصلة. ضحكوا جميعا إلا الرجل اللطيف صاحب النصيحة، أما عدو خالي فقد انفرج فمه عن نصف ابتسامة ثم اختلس نظرة خاطفة على الرجل اللطيف فتراجع عن النصف أيضا.

ساد المجموعة صمت محيّر. قلت في محاولة لاختراق ذلك الرداء الثقيل: اخترت لكم كتابا من أدق ما كتبت العرب في الحب، طوق الحمامة في الألفة والألاف.

قال الرجل اللطيف وكأنما مسته جمرة: هذا كتاب ابن حزم. قلت: فقيه الأندلس. عاد رداء الصمت ثانية لم يخلعه عنّا إلا إضافة من الرجل اللطيف. قال: طوق الحمامة سنتركه للمستقبل، لقد احتطت بكتاب أكثر ملاءمة لمجلسنا وهذا هو. أخرج من حقيبته كتابا ودارت بي المكتبة. قلت لنفسي: هذا سوء تهذيب، يصادر دوري بهذه البساطة؟ وهذه أيضا عنجهية، يتصرف بهذه الفوقية؟

ترددت بين أن أخطف الكتاب ثم أطوح به من النافذة، وبين أن أصفع هذا الرجل الصفيق الذي كان لطيفا قبل أن تمسه جمرة ما. استعذت بالله من الشيطان الرجيم وقررت احتراما للمكان وللأجواء العلمية أن أُغَلِّب حسن الظن. قلت له: ابن حزم عالم وفقيه شرعي وكتابه كتاب ثقافة وأدب وعلم نفس وأنثروبولوجيا، وفوق ذلك فكلٌّ يُؤخَذُ منه ويُرَدُّ عليه إلا صاحب هذا القبر.

قال الرجل الذي كان لطيفا قبل أن تمسّه جمرة ما: عالِمُك الأندلسي هذا كان يتساهل في العزف والغناء وهذه لوحدها خارمه. قلت الغناء خارمه؟ لم يجب، لكنه قال: مهما يكن فإن كتابه هذا عديم النفع ولا فائدة تُرجى منه.

هرش بأظافر يمناه ظهر كفه الأيسر. نظر في عينيّ، أضاف وكأنه يتجنب حرجا: ومع ذلك فأنا لم أرفضه رفضا مطلقا يا صديقي، قلت نؤخره إلى حين.

فتحت صفحات الكتاب وقلت: ما علينا، جئنا إلى هذا المكان لنقرأ كتابا في كل مرّة ثم نتطارح الآراء حوله، نقرأ الآن ثم ندون محاسن الكتاب

ومعايبه. شرعت في القراءة، نهض الرجل الذي كان لطيفا قبل أن تمسّه جمره ما. توقفت ورفعت رأسي أتابعه حتى خرج. أوشكت على استئناف القراءة وإذ بالمجموعة تغادر المكان، حتى صديقي عدوّ خالي الذي جاء بي هنا غادر أيضا!

أصابتني دهشة عارمة. انتابتني حالة أسى، أسىً صبّ في فمي مرارة، داخلني شعور يتيم أبوين صباح عيد. سألت نفسي ولم؟ لم ردة الفعل هذه التي تخلو من أي أدب. ردة فعل لا أستحقها حتى ولو كنت أنا ابن حزم ذاته وحتى لو كان طوق الحمامة من بنات أفكاري ومن أمهاتها أيضا. اكتشفت بعد هذه الصفاقة أنني في المكان الخطأ. أدركت أيضا أن الانغلاق كارثة وأن الرفقة الحقيقية لم تخلق بعد.

نهضت في مكاني، لملمت ابن حزم وطوق الحمامة وخرجت. مشيت مطرقا ونظري عند حافة قدمي فما إن ابتعدت قليلا حتى سمعت همهمة خلفي. قبل أن ألتفت؛ شعرتُ بكف مترهلة باردة تربت على كتفي. أمسك صديقي عدوّ خالي بكتفي فأفزعني. أفزعني فقد كنت شارد الفكر. بادرته بقولي: Even You Brutus؟

كان يبدو خجلان آسفا، وجنتاه محمرّتان، فمه مفتوح قد أسفر عن ثنايا عريضة ولثة باهتة. أقسم لي بالطلاق والعِتاق أنه ما كان ينتظر أن تصل الأمور إلى ما وصلت إليه، وما كان يتمنى ذلك أبدا. حمّلني جزءا كبيرا من المسؤولية لاختيار كتاب لا نفع فيه.

شعرت أنه قد نصب لي كمينا ليسمعني خطبة بائسة. أوضحت له قبل أن يكمل خطبته اليائسة تلك أنه قد انحاز بصمته المريب للصف الآخر، انحاز بكامل طاقته للرجل الذي كان لطيفا قبل أن تمسه جمرة ما. فوجئت به يقول بشيء من الاعتذار: إنه خالي، فيه بقية من أمي. ضحكت في وقت

لم يكن للضحك فيه مكان. ضحكت كثيرا حتى سال دمعي. قلت له: ولك خال أيضا؟ وفيه بقية من أمك؟ هز رأسه وقال: نعم، مثل المرحوم خالك، أنا عدو خالك وأنت عدو خالي. قال ذلك ثم ضحك وضحكت.

تلفت عدو خالي ذات اليمين وذات الشمال ثم قال هامسا وكأنه يقترح عليّ جناية: هل تعرف زاوية سيدي عبد القيّوم؟ انتفضت وقلت له: ستوجه لي دعوة أخرى؟ لن أذهب معك، يكفي ما رأيت اليوم بسبب دعوتك. استجمع ريقه، زمّ شفتيه، أخذ بيدي حتى انتحينا جانبا.

قال: سأكشف لك سرّا. أنا كنت من المداومين على زاوية سيدي عبد القيّوم حتى كشف خالي أمري، فاقتحم الزاوية وأنا في حال من الذهول على أول سبحات الكشف. سحبني من الصف بأذني أمام جمع المريدين، عفا الله عنه.

جف حلقي وجف ريقي وأنا أستمع لهذا الهراء. هراء هذا الطبل الذي ورّطني في مجلس لا ناقة لي ولا جمل. قلت له: لا يعنيني خالك ولا تعنيني أنت. تولّ عني بعيد أرجوك، أما زاوية سيدي عبد القيّوم فإني سأعرف طريقي إليها متى ما رغبت فيها. انسحبت من المكان وتركته واجما في مكانه.

لن أكذب عليكم. لقد زرع هذا الصديق العدو بذرة في رأسي. زرع زاوية سيدي عبد القيّوم فيما بين المخ والمخيخ. كنت أعرفها ولكني تجنبتها بسبب المرحوم خالي. كان يتطير بالدفوف والتصاوير التي تمتلئ بها جنبات الزاوية، لذلك تجنبتها، ثم نسيتها، إلى أن ذكرني بها صديقي عدوّ خالي.

قلت لنفسي: لا بد من زاوية سيدي عبد القيّوم ولو طال السفر، ولو تثنّى كل عودٍ وانعجر.

في تلك الزاوية تخفُ الأجساد وتشفُّ الأرواح. تنفرد عن وجودك، تغيب عن شهودك، تذهل فتُقْبَل. تتسعر الأشواق في حناياك. تسمو لتبلغ كمال

الوجود. تغفو عن شاردتين وتصحو على واردتين. تتجلى ويُتَجَلّى لك سكَرا وصحَوا. ومثلما تنفذ عبر قشرة البرتقالة ستتجاوز الظاهر لتنفذ للباطن. لابد من الزاوية ولو طال السفر. اعتراني صمت وجيز، ألقيت نظرة أخيرة على طوق الحمامة وقلت: سامحني أبا محمد.

قطعت زقاقا ضيقا أفضى بي إلى رحبة في وسطها كرمة. احتطت معي بمصباح يدوي فقد كان الزقاق موحشا شديد الظلمة. عبرت الزقاق بسرعة وثبات. وصلت الرحبة ووقفت أمام الكرمة. مكثت دقائق عندها ثم سلكت زقاقا ضيقا لكنه أقل طولا من سابقه. أفضى بي الزقاق إلى باب الزاوية، زاوية سيدي عبد القيوم. كانت هناك لوحة زرقاء كتبوا عليها بخط الثلث زاوية سيدي عبد القيوم.

سمعت صوت الإمام يقرأ القرآن في صلاة العشاء. شاركتهم الصلاة، نهض الإمام بعدها، ألقى خطبة عرفت منها أنهم يحتفلون الليلة بالذكرى المئوية لمؤسس الزاوية سيدي عبد القيّوم. قمنا بعد الخطبة لنتراصف على دكة مرتفعة تتواضع عند أقدام الحيطان الأربعة للمكان. كان هناك دفٌّ كبير خلف كل واحد منا. شرع شاب يلقي قصيدة منغمة. كان صوته شجيا وعليه ملامح العفّة والورع.

قال الشاب: فؤادي بالأحبّة ما تهنّى، وقلبي حين زاد الوجد أنَّا، وإني ساهر والليل جنّا. سمعت سويجع الأثلات غنّى، على مطلولة العتبات رنّا. أجابته مغردة بنجد، وثنت بالإجابة حين ثنّى، ذكرت أحبَّتي وديار أُنسي، وراجعت الزمان بهم فضنّا، وكاد القلب أن يسلو فلمَّا، تذكَّر أبرق الحنَّان حنّا.

كانت هذه أول جرعاتهم في ترقيق القلوب. أدركت حينها أن الصدأ تراكم عبر السنين على صفحة روحي وقد انجلى الان. نهض شاب آخر وشرع في غناء قصيدة أخرى بمصاحبة الدفّ: أغيب وذو اللطائف لا يغيب،

وأرجوه رجاءً لا يخيب، وأسأله السلامة من زمان، بليت به نوائبه تُشيب، وأنزل حاجتي في كل حال، إلى من تطمئن به القلوب، فكم لله من تدبير أمر، طوته عن المشاهدة الغيوب، وكم في الغيب من تيسير عسر، ومن تفريج نائبة تنوب، ومن كرم ومن لطف خفيّ، ومن فرج تزول به الكروب، ومن لي غير باب الله باب، ولا مولى سواه ولا حبيب.

توقف الشاب الوسيم عن الإنشاد لكن الدفّ لم يتوقف. استمر ضاربه يوجعه بالكفّ. زاد في وتيرته حتى بدأت الزاوية قاطبة تتمايل على توقيعه.

كان أمامنا صف من الواقفين أما صفنا فكان يجلس على الدكّة ذاتها التي جلسنا عليها منذ البداية. يتمايل الواقفون والقاعدون عداي. أردد معهم عبارة "الله حي" لكني لا أتمايل. عافت نفسي ذلك دون أن أضيق ذرعا بالمتمايلين.

بقيت ليلتي تلك استمع للغناء وأردد معهم " الله حي". أكاد أطير خفة بل أحسست بأني مثل سحابة على متن الريح، أغيب عن الشهود لحظات وأعود.

توقف الدفّ وآذن المقام بالانصراف. خرجت وعند الباب استوقفني رجل طويل القامة عليه خِرقة. قال لي: الطهارة! تجاهلته ومضيت. قطع طريقي رجل آخر أعاد العبارة نفسها. توقفت لكنه صدّ عني وانصرف. اقترب مني آخر كان يراقب، قال لي معاتبا بهمس: لا تتمكن مالم تستجلب الوجد، ولا تستجلب الوجد مالم تفعل فعل أهل الوجد ومعاملات أهل التواجد. هو قالها وأنا لم أفهم ولم أكترث ومضيت في طريقي.

سندريلا الحافية

مَلَكَتْ عليه بديهته وصوابه تلك الفتاة التي وقفت في عرض الشارع، قالت كلاما أشبه ما يكون بمنشور سياسي استوقفه. كانت آسرة فاتنة، لكن تلك الفتنة لم تكن وحدها سر الافتتان. هناك أمر آخر كان أكثر خطورة، أمر استوقفه ليستمع للفتاة وهو رجل لا يستوقفه شي. رأى الكثير من الخطباء ومن عبّاد الكلام لكنه لم يكترث. حتى في الهايد بارك عندما يصطاف هناك؛ كان يحث الخُطى إن مرّ على مقربة منها. كان يرى فيها تمثيلية مجتمعية كبرى، تمثيلية تواطأ الناس عليها لترضي غرورهم، لتغذي يوما بعد يوم زهوهم بديموقراطيتهم. لم تغره الهايد بارك، لم يتوقف أمامها، ولم يتوقف أمام أي خطيب في الدنيا قبل هذه الفتاة المفوّهة!

كان على يقين بأنها إن لم تكن سندريلا فهي ليلى جيمس ولذلك انطلق كالمسحور خلف هذه الفكرة، وليس خلف أي منهما: سندريلا أم ليلى. انطلق عيناه تتبعان خيطا رفيعا يظهر حينا ويغيب حينا، الخُطى تتسارع والزحام يتزايد وجِرْم الفتاة كلما ظهر غاب مثل مسلول كلما أبلّ انتكس.

عندما اختفت من على صفحة شاشاته توقف عن الملاحقة لكنه لم يتوقف عن التحديق حتى تكسّرت نصال عينيه على كتل الأجساد المتزاحمة.

كفّ عن التحديق بعد ان ابتلعتها نقطة عمياء في أقصى الشارع، أرخى عينيه ثم سأل نفسه: وماذا كنت سأفعل بها لو أدركتها؟ هل كنت سأطلب منها تفاصيل أخرى؟ ولو طلبت هل كانت ستقدم لي شيئا؟ الحمد لله أنها قد تبددت في قلب الزحام فهي تبدو صعبة المراس وربما شرسة أيضا رغم فتنة السحر التي تطوف بها.

تجاهل تماما أنها فتاة جميلة. ألغى كل التداعيات التي تحوم حول هذه الواقعة. توقف فقط عند الكلام الذي خرج من فمها، ليس كل كلام قالت بل بعض ما قالت. ذلك الكلام الذي كان يعنيه شخصيا، الكلام الذي جعله

يتوقف، يلتفت، ينصت ويلاحق. قرر أن يخلع قدميه من الموضع الذي تسمرّت فيه، أن يغادر هذا الشارع الذي لم تأخذه قدماه إليه يوما لولا تلك الفتاة أو لولا تلك الخطبة العصماء. الخطبة أو قل البيان أو المنشور أو حتى الجملة الفعلية التي أثارت حفيظته وجعلته يلتفت ويتوقف وينصت ثم يجري خلفها مثل قط يلاحق شيئا غفلا يتحرك وهو لا يعرفه.

عاد خالي الوفاض حتى من خفّي حنين. لفت انتباهه حشد من الناس تنتصب قاماتهم في نفس المكان، المكان الذي كانت فيه الفتاة. تردد بين أن يتجاهل الحشد ويمضي وبين أن يستطلع الخبر فيدنو من الحشد.

دنا منهم، أرهف سمعه، لم يجد شيئا. كل أحاديثهم كانت تدور حول جمالها، قامتها الممشوقة، بهاء طلعتها. سأل عن بعض عبارات وردت في كلامها فلم يجد جوابا، بل سمع سخرية مريرة وهذا هو حال أهل ذلك الحي لكنهم جيرانه على كل حال. دار قليلا حول نفسه، أتمّ دائرة أوسع حول المكان. تفحص الوجوه التي لم تتغير بلادتها يوما، نظر إلى ساعته كأنما يمرر لهم رسالة ما ثم مضى في طريقه.

شعر بيد تتوضع على كتفه من الخلف. استدار كالملدوغ وسأل من أنت؟ انفرجت أسارير الرجل. انفرجت وكان ينبغي أن تزداد تجهما وعبوسا. بدا خلف تلك الأسارير السعيدة وكأنه يبحث عن هذا السؤال منذ البداية، قال: هذا هو السؤال الغائب دائما. هذا هو السؤال الذي لو حضر لما تاهت أعيننا في زحمة الوجوه. قال الشاب: حسنا. ها قد حضر السؤال فمن أنت؟

اقترب الرجل من الشاب، شاهد تفاصيل وجهه، قال له بمنتهى الرقة واللطف: انا ابن سندريلا!. انفجر الشاب ضاحكا. صفق كفا بكف. قال وكأنه يسك جنيها من ذهب: إذا طال الليل كثُرت عجائبه. أضاف: تجد فيه

السحرة والكهان والمجانين جنبا إلى جنب مع الكلاب الضالة والهواء الأعمى والظلام الأشد حلكة من الظلام نفسه.

استمر الشاب يضحك ويقهقه فالنكتة طويلة وعريضة جدا. خرجت السخرية مريرة من بين صفحات القهقهة، قال له: أنت ابنها؟ ابن سندريلا التي زعمتم؟ تبدو صغيرا يا صديقي المجنون وتبدو سندريلا عجوزا تكالبت عليها السنين.

اقترب من الرجل وكأنه يسترضيه: قل أنك حفيدها يا صديقي، قل ذلك كي أصدقك. قال الرجل بلا تردد: حفيدها، نعم أنا حفيدها، انا ابنها وحفيدها وحفيد ابنها وحفيد حفيدها ونسلها حتى تموت الشمس. ضحك الشاب مرة ثانية، اقترح على الرجل أن يكون أبوها. فاجأه الرجل بقوله أنه أبوها وجدها وجد أبوها. هي من نسله الذي نسل منذ أشعل الله قناديل السموات والأرض ووضع الشمس بيديه فوق المدار.

تأكد الشاب أنه أمام شاعر مجنون أو مجنون شاعر. رأى الشاعر رأي العين ورأى المجنون رأي العين أيضا لكن أيهما الأعرق؟ أيهما الأكثر عراقة في جسد هذا الرجل البائس؟ من الذي ارتدى هذه الملابس الرثة قبل الآخر: الشاعر أم المجنون؟ سأله تهكما: أنت شاعر أم مجنون يا صديقي؟ أجاب بأنه مسحوق مظلوم مسلوب الإرادة يصعد الجبل إذا نزل الناس وينزل منه إذا صعدوا.

ارتسمت على ملامحه كل معالم البؤس، تقدم أكثر، قال مستجديا: هل تداوي جنوني؟ هل تجيد النفث؟ ان كنت تجيده فانفث في أذني ليخرج الجنون من أذني المقابلة. تقدم أكثر، وضع يده على كتف الشاب، توسل إليه: مسحوق مظلوم فارفع الظلم عني. مسلوب الإرادة، ردها لي. سيدي الأمير إن سندريلا لك فاحملها على جناحك الخفّاق.

أزاح يد الرجل عن كتفه، ضغط على أسنانه وقبل أن يهمّ بالانصراف استوقفه الرجل بالقوة: عد إلى الحكاية يا سيدي الأمير، أدخل إلى صفحاتها، مكانك داخل الحكاية وليس في الشارع هنا. أدخل ولا تتوقف حتى تستقر بين سطورها. لا تطع الثوار يا سيدي، الثوار الملاعين كَذَبَة، ثورتهم مسبقة الدفع. أخرجوك من قلب الحكاية لتخرج سندريلا من قلبك.

تفرّس في وجه الرجل، تمعن في هيئته، ركز في بريق خاطف يلمع في عينيه. خرجت من البريق ومضة كأنها شواظ من نار ونحاس، خرجت ومضات أخرى والليل يلفهما. قال الرجل: اسمع يا ولدي: إياك ثم إياك أن تضيع وقتك خلف سندريلا لا حذاء لها. هذه السندريلا التي سلبت لبابك يا ولدي حافية القدمين. جاءت إلى هذا الشارع المضطرب حافية وخرجت منه حافية.

دقق وحقق تأكد له أنه أمام رجل مجنون أو أنه هو المجنون، أحدهما في عقله خلل. قرر أن يتصرف كمجنون أو أن يعامل الرجل كمجنون. أمره أن ينصرف من المكان فتلكأ الرجل في الانصراف. عندها قال له هذه أوامري وعليك أن تطيع الأمير. فاجأه كثيرا أن الرجل قد أطاع وانصرف، انصرف يمشي إلى الخلف حتى لا يعطي ظهره للأمير! وجهه كان تلقاء الأمير والأمير يتابع. يتابع ذلك حينا وحينا يختلس نظرة إلى حذاء مهمل على قارعة الطريق. يتابع وجه الرجل ويختلس نظرة للحذاء، يتابع ويتابع ويختلس نظرة، حتى غاب الرجل في نفس النقطة التي ابتلعت سندريلا.

قرر الشاب مغادرة المكان. وبعد أن تحرك مسافة سمع وقع خطوات عجلى تقتفي أثره ولما يبتعد كثيرا. توقف ثم التفت. رأى الدرويش يلحق به، فاجأه سؤال الدرويش: نالت الفتاة اعجابك، أليس ذلك كذلك؟ رد عليه بسرعة: هي فتاة جميلة لكنها قالت كلاما يهمني أمره، هل سمعت ما قالت؟

ضحك الدرويش. انتزع القهقهة تلو الأخرى كأنما ينزع دلوا في إثر دلو من أسفل ركيّة. قال للشاب يبدو أنك من عبّاد النصوص. همّ أن يدفع الدرويش بعيدا لكنه تراجع، فضّل الانصراف فليس عند الدرويش ما يفيد. جذبه الدرويش من كتفه فلما استدار قال له: أنت مصاب بسهم اللحظ يا ولدي. أنت عاشق لا تدري ما تصنع بقلبك. سرت من ورائها كالمسحور ثم رجعت عنها كالمجذوب. أنظر هناك. هذا حذاؤها فخذه بقوة. اتبع الحذاء يأخذك إلى سندريلا.

استأنف طريقه تاركا حذاء سندريلا على قارعة الطريق وبقايا كلمات الدرويش تتكسر في صيوان أذنيه. ضحك وقال في نفسه: سندريلا هربت من قصر الأمير تاركة حذاؤها، لكن هذه الفتاة لا حذاء لها. تلك جميلة وهذه جميلة، تلك دلّ عليها حذاؤها كما أرادت لها الحكاية وعصر الحكاية فكيف استدل على هذه ولم تترك حذاء. فلتكن سندريلا واحدة هنا وهناك؛ أنا لست أميرا على كل حال! وليلى جمس لم تكن سندريلا.

بينما كان الدرويش يبتعد طرأت على الشاب فكرة. قال سأعود للحذاء. سألتقطه، ليس بالضرورة أن يأخذني إلى حيث سندريلا وليس بالضرورة أن أكون أميرا. هذا الحذاء سيبقى معي، يبقى ذكرى لغرابة هذا اليوم. عاد بحذر إلى حيث الحذاء، اقترب منه كثيرا، رأى امرأة تقف على مقربة منه، تردد قليلا لكنها رأته وأومأت، طلبت منه ان يتقدم منها.

أدرك أنها بصّارة الحي، أرملة تعيش على قراءة الكف والأبراج. قال في نفسه: درويش يخرج وبصّارة تدخل. التزم الوقار ثم تقدم وسلّم. قالت له بلا مقدمات: أحببتها؟ قال: ليس هذا مربط الفرس سيدتي، الفتاة قالت كلاما يهمني كثيرا، رغبتُ الاستزادة منها فهربت منّي، لحقت بها دون جدوى وهذا كل شيء. حدّقت البصّارة في منتصف المسافة بين عينيه حتى أشاح بوجهه

قليلا. حاول أن يقول لها شيئا، لكنها لم تدعه يكمل وكأنها عليمة بما في قلبه أو ترى شيئا ما على صفحة وجهه. قالت له: أنت عاشق ولهان، فلتكن أنت الأمير العاشق. ضربت على صدره بباطن كفها ثم أضافت: كن الأمير العاشق وسوف أجعل منها سندريلا ومن نفسي ساحرة تدنيها منك وتدنيك منها. لم ينبس ببنت شفه، أعطاها ظهره، انطلق عائدا لبيته وتركها خلفه عند الحذاء.

في طريق عودته حدّث نفسه، تساءل: عن أي سندريلا يتحدث الفارغون؟. الدرويش يقول سندريلا، البصّارة أيضا تقول سندريلا، والبون شاسع بين سندريلا وهذه الفتاة، لا وجه للشبه إلا في الهروب فقط . سندريلا الحكاية هربت كي لا ينكشف بؤسها أمام الناس، بينما سندريلا الشارع هربت دونما سبب. سندريلا الحكاية كانت تنام على سرير من القش القذر، تكنس وتغسل وتأكل بقايا الطعام، تمضي يومها تحت قدمي زوجة أبيها، تلتمس الرحمة في قلوب نسجت من ليف صخري. أما سندريلا الشارع فلا نعرف عنها شيئا. سندريلا الحكاية أحبها الأمير بينما سندريلا الشارع لم يحبها أحد. ماذا يدور في تلك الرؤوس الفارغة ليقولوا سندريلا؟ هل تدير أعمالهم شياطين الطمع؟

توقف واستدار. ألقى نظرة بعيدة حيث الحذاء ثم قال: ما لذي منعني من أخذ الحذاء؟ هل لأن شكله قديم جدا؟ عدت كي التقطه لكن البصّارة أربكت بصيرتي. تقول ساحرة! يا لها من أضحوكة! الساحرة تأتي من البداية وليس بعد خراب مالطة! الساحرة في حكاية سندريلا حضرت مبكرا، انتشلت سندريلا من مستنقع يأس مرير. تعمدت زوجة أبيها القاسية أن تغيبها، جعلتها صفرا لا قيمة له. عندما وجّه الأمير دعوته لكل صبايا مملكته زيّنت بنتيها حتى غدتا أيقونتا جمال، دفعت بهن إلى قصر الأمير وتزينت هي أيضا،

تزينت لتجعل من جمالها خلفية باهرة، أو حسنا موازيا يسند جمال ابنتيها. استمر ظلم تلك الزوجة الملعونة حتى جاءت الساحرة. قبل أن تكون سندريلا شيئا مذكورا كانت هناك ساحرة ماهرة.

وصل إلى حيث الحذاء، انحنى، التقط الحذاء، صرخ به رجل: هذا حذاء سندريلا؛ ما شأنك به؟ ترك الحذاء، انتصب، رفع رأسه ليبصر المتكلم، قال له: أي سندريلا يا رجل؟ سندريلا عاشت وماتت في بطون الكتب. هذه حذاء جاء بها درويش وألقاها هنا، على قارعة الطريق. قال الرجل الغريب: أليست هي تلك الفتاة التي وقفت في وسط الشارع ثم ألقت بيانا وهربت؟ سرّه كلام الرجل، هشّ له، قال نعم. وبحثي هو عن البيان لا عن سندريلا ولا عن حذائها. اقترب منه الرجل، ربّت على كتفه، أولج بصره الحارق في عجينة وجهه، اقترب وابتعد، اتخذ وضع الطبيب، قال له أنت عاشق. أضاف بعد صمت مضلل: هي سندريلا وأنت أميرها وهذا حذاؤها.

المحتويات

م	المحتوى	الصفحة
١	الإهداء	٣
٢	الجبابرة	٥
٣	رجل تدركه الأبصار	٩
٤	المواكب	٢١
٥	سيرة بطل ملحاح	٢٥
٦	بوصلة الجحيم	٣٧
٧	زائر الضحى	٤١
٨	من الجمعة إلى الجمعة	٤٧
٩	سندريلا الحافية	٥٩
١٠	المحتويات	٦٨

رقم الإيداع: ١٤٤٦/٨٥٠٨

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٥-٢٨٠٨-٠